

الحرب والتاريخ

نشر المسيو هنري ماركزالي من أساتذة كلية بودابست مبحثاً في الحرب العامة في نظر التاريخ في مجلة التي تصدر بالفرنسية قال بها ما نعر به بما يأتي: قال القائد كنوزفيتز أحد أساتذة فن الحرب الحديث: الحرب هي السياسة بالسلاح. ونحن هنا نبحث في سياسة الممالك المتحاربة إلى يوم نشوب الحرب ونبين ما بين الأمم المختلفة من المصالح والأهواء التي دعت إلى هذه الحرب وأطالت مدتها. وقد رأينا الجماعات هذه المرة قد قضت بالحرب لا الأفراد مهنا بلغ سلطانهم وعظمتهم. وبعد فلا يخفى أن الحرب نشبت رغم إرادة القيصر أكبر ملك يدعي أن سلطته من الله ولقد تنبأ مولتكه بأن الأمم هي التي ترغب بالحرب لا الوزارات وما حدث فإنه نتيجة نشوء تاريخي وسلسلة كوائن وأول هذه الحوادث حرب فرنسا وألمانيا سنة ١٨٧١ - ١٨٧٠ وهي الحرب التي أضاعت فيها فرنسا ولايتي الألزاس واللورين اللتين كانت افتتحتهما بالسيف وقلبت كيانهما وفرنست سكانها ودفعت فرنسا فوق ذلك غرامة باهظة ولم تعد أول مملكة أوروبية كما كانت وظل جرحها دائماً وما برحت العداوة الفرنسية الألمانية العامل الدائم في الحالة الأوروبية. وقد حاول الألمان أن يسلبوا تلك السخائم والعداوات من صدور لفرنسيين وحاول أناس من رجال السياسة ومن أشهرهم غامبتا أفرنساوي أن يعيدوا الألفة بين الشعبين ولكن أخفقت جميع مساعيهم لأن أبرة هذا الانتقام ظلت متأصلة في الجرح. خرجت روسيا بعد الحرب أفرنساوية الألمانية من قيود الاحتياط التي علنتها إياها حرب القويم ولم تبصر أمامها أوروبا كما كانت حالها من قبل وأخذت تحمي الدولة العثمانية وكانت هذه ضعفت وأختل نظامها على عهد السلطان عبد العزيز وأعنت روسيا أنها لا

تتعرف بمعاهدة باريز (١٨٥٦) التي كانت تحظر عليها أن تنشأ أسطول حربي في البحر الأسود وعادت تبعث آمالها القديمة من مرقدتها لامتلاك المضيقيين والعبث بالأملاك العثمانية وكانت إنكلترا والنمسا والمجر في مؤتمراً لندرة تقاومان هذه الدعوى وحدهما ولئن وصف الملك غليوم عمل القيصر بأنه الضربة القاضية فلأن المخالفة الروسية كانت أساس السياسة البروسية فأخذت بروسيا تنشأ أسطولاً بحرياً في البحر الأسود ثم جددت همتها وتوسعت في ميولها لتقوية دعائم المملكة العثمانية واستعملت لذلك طريقتين فكان الكونت أغنايف سفير روسيا يسيطر على السلطان الذي كان ييدي ضعفاً وقلة خبرة ويوهمه بأنه هو الصديق الحقيقي له ولسلطانه وأنه وحده يحول دون أوروبا وما تشتهيه من وضع حد لسلطة السلاطين المطلقة بمحاولتهم إدخال الإصلاحات على المملكة العثمانية ولطالما قدم هذا السفير المال إلى السلطان والمقربين منه. وهكذا كانت تعمل روسيا الرسمية ولكنها كانت من جهة أخرى توقد جذوة الاضطراب وتدس الدسائس في جميع الولايات العثمانية. فكانت أموال الروس ونفوذهم تشتغل في بلغاريا والبوسنة وألبانيا والجبل الأسود والصرب ورومانيا. وإذا أيقنت روسيا الرسمية أن طريق الأستانة يمر من فينا وبودابست صرفت وكدها كلها لتقلب رأساً على عقب بوكوفينا وغالسيا وبوهيميا وهنغاريا روسيا. وكانت تجاهر بأن غايتها الوحيدة تحرير جميع الشعوب الصقلية وضم شملهم تحت سلطان روسيا الأكبر وتدير هذه الحركة جمعية الاتحاد السلافي في موسكو وهي وإن لم تكن رسمية ولكن كان بعضدها الغراندوقات والقواد ولما تخمرت الثورة وبلغت روسيا الغية من انتفاض البوسنة والهرمك وإلقاء الاضطراب في بلغاريا ثم فرغت الصرب والجبل الأسود إلى حمل السلاح دخلت روسيا إلى ذاك الميدان علناً

وكانت من السرعة في العمل بحيث قام الوطنيون من العثمانيين وأنزلوا عبد العزيز عن عرشه لاعتقادهم بوخامة الحالة ولم تنل الصرب من روسيا معارضة مالية فقط بل بعثت إليها بالمتطوعة وحاولوا دون العثمانية وزحفها ظافرة على بلغراد. ولم تتدخل إمبراطورية النمسا والمجر في الأمر وحالت عداوة غلاوستون للعثمانية دون إنكلترا وعمل شيء وفتحت رومانيا طريقاً للجيش الروسي طوعاً أو كرهاً وعضدت روسيا في حملة ١٨٧٧-٧٨ التي انتهت بهزيمة العثمانيين فأملى الجيش الروسي شروط الصلح على أبواب الأستانة في سان ستيفانو وأنتجت هذه الحرب تأسيس مملكة بلغاريا الكبرى وتوسيع أملاك مملكتي الجبل الأسود واليونان ولم تحظ الصرب وكانت متعلقة بأهداب النمسا والمجر بقسم كبير من هذه الغينة وكانت رومانيا أعلنت استقلالها من قبل. وإذا كانت هذه الممالك بنات روسيا وهي القائمة على غمها واتساع رقاعها أصبح من الأمور الطبيعية إن تكون أدوات لسياسة الاتحاد السلافي. أما رومانيا واليونان فانهما وإن لم تكونا صقالبة من حيث العنصر فقد انضمتا إلى لواء القيصر بجامعة الدين الواحد. حالت إنكلترا والنمسا والمجر دون تحقيق هذا الحلم الذي طالما حلم به أهله فحدد مؤتمر برلين (من ١٣ حزيران إلى ١٢ تموز ١٨٧٨) تخوم بلغاريا وأقترح مندوب الإنكليز أن تفوض للنمسا والمجر إدارة مقاطعتي البوسنة والهرسك واحتلال بكري يازار. وحازت روسيا أملاكاً في أوروبا فاستضافت من حليفها. رومانيا مقاطعة بسارابيا شمالي مصاب نهر الطونة وروسيا نفسها هي التي قدمت البوسنة للنمسا والمجر ولولا ذلك لخال جيش هذه دون دخول الروس إلى الروم أيلي. وقد عمل بسمارك في مؤتمر برلين عمل السمسمار الشريف بيداً، توسطه لم يقنع روسيا المعتادة أن تجد لبناً أكثر عند الحكومة البروسية.

فأخفقت المشاريع السلافية وأصبح قواد الروس منذ ذاك العهد ينظرون إلى ألمانيا نظر
الخصم الحقيقي وأخذوا يبصرون أن طريق الأستانة يمر ببرلين. دلت التجارب أن روسيا
الرسمية المالية لم تعد تستطيع أن تقاوم الجامعة السلافية كثيراً واضطر بسمارك أن يعقد
مع النمسا وانجر محالفة كانت تعد موادها منذ زمن طويل على الشروط التي وضعها
الوزير اندراسي. وهذه المحالفة تنظر خاصة إلى السياسة العدائية التي سارت عليها روسيا
وقد حياها سلسبورى باسم إنكلترا بعين الاستحسان هذه المحالفة التي كانت المفردة في
أوروبا فأصبحت روسيا بمعزل وما كان لفرنسا إذ ذاك سوى ميل من الحزب غير
الراديكالي الإيطالي عندما وضعت فرنسا يدها على تونس (١٨٨١ - ٨٣) وهكذا
تألفت المحالفة الثلاثية التي قامت مقام تحالف الأباطورة الثلاثية الموجود
سنة ١٨٧٣ وكانت أواخيها قد انحنت انحلالاً كبيراً فتحققت أمنية بسمارك في ضمان
السلم لمملكة ألمانيا والحفاظة على المكانة التي بلغتها بحروب شعواء وما كان يفكر إلا في
توسيع روابط تلك المحالفة وإن يدخل فيها ما أمكن من الممالك حتى بلغت بها الحال بعقد
عهدة مع روسيا. هذا والمملكة العثمانية تسير في طريق التجزؤ فاحتلت
انكلترا سنة ١٨٨٢ معترفة بسيادة الباب العالي عليها وعلى قبرص وذلك بأن تؤدي إليه
الجزية وتحفظ بالإرادة الخديوية وفي سنة ١٨٨٥ أعلن الروم أيلى الشرقي وكان انفصل
عن بلغاريا في مؤتمر برلين انضمامه إلى هذه الأمانة وأصبحت الثورة دائمة في كريت إذ
كان عمل روسيا محسوساً في كل هذه الشؤون ولا سيما في إسقاط الشجاع ألكسندر
دي باتبرغ من على عرشه على صورة وحشية لم تجوز النمسا والمجران أن تصبح شبه

جزيرة البلقان تحت نفوذ روسيا ولذا كادت الحرب تنشب من أجل ذلك نحو أواخر سنة ١٨٨٨ أنبعث فالنوكي إذ ذاك بلاغاً إلى بطرسبرج فاضطرت روسيا إلى الإذعان وفي ذلك التاريخ نشرت عهدة التحالف المعقود بين ألمانيا والنمسا والمجر (٧ شباط ١٨٨٧) وألقى بسمارك خطابه المشهور ضد روسيا الذي قال في ختامه نحن الألمان نخاف الله ولا نخاف سواه فاضطرت روسيا أن تحجم مرة أخرى عما تريد وذلك لأن حركة العدمين () كانت قد ددت اليوم بعد اليوم حياة القيصر وأدوات ظلمه ومع هذا لم ترجع عما عقدت العزم عليه وانجلت المخالفة المقدسة بين ممالك الشمال الشرقي انحلالاً أبدياً وكان امتلاك الأستانة على الدوام تفاحة النزاع على نحو ما كانت عليه الحال في أوائل القرن عندما أريد إن يعرف من يكون صاحب المضائق فأنجلت بذلك معاهدة نابليون واسكندر الأول إن روسيا لا تحلم باحتلال القسطنطينية مدفوعة إلى ذلك بعوامل تقاليدها القديمة بل إن مصالحها التجارية والسياسية تسوقها إلى الاستيلاء على عاصمة البيزنطيين لأن هذه العاصمة تستطيع أن تسد الطريق على سفنها الحربية كل حين وتحول دون ما تشتت به من نقل جوبها إلى مرائي البحر المتوسط وهي أحسن وأقدم المصارف لتجارها بقيت فرنسا وحدها فأصبح من الطبيعي تحالفها مع روسيا وكان الاعتقاد الراسخ منذ سنة ١٨٧٥ أن تدخل روسيا هو الذي أنقذ فرنسا من غارة الألمان ثانية عليها ليفسدوا فرنسا فصدّة تصفي دمها. فعقدت المخالفة بين فرنسا وروسيا سنة ١٨٩٣ ووقعت هذه المخالفة الثانية أمام المخالفة الثلاثية وأخذت أموال لفرنسيس لتسرب إلى روسيا التي لم تتعب من الأفراض (١٥ مليار فرنك في ٢ سنة) وبذلك تبين أن الموازنة الأوروبية عادت فاستقامت. ولما تخلى عن الدولة العلية حاميتها القديم وجهت وجهها بالطبيعة نحو المخالفة

الثلاثية واستدل على هذا الانقلاب بسياسة الإمبراطور غليوم إلى الأستانة وفلسطين ١٨٩٨ ونالت الصناعة الألمانية والأموال الألمانية امتياز السكك الحديدية في آسيا الصغرى وبين النهرين وهي مشاريع تبشر بمستقبل زاهر. وحاربت العثمانية اليونان حرباً خرجت منها ظافرة. لا جرم إن الخوف كان مستولياً على مكدونية فكانت عصابات يونانية وبلغارية تعد للمستقبل عدته ولكن اتفاق حكومتي فيينا وبطر سبرج بشأن إدخال الإصلاحات كان ضماناً للحالة الحاضرة ولبقاء الحكم العثماني عليها (١٨٩٧) ولم يجز الوفاق بين النمسا والجر وبين روسيا على قاعدة التساوي وكان من الحزب الروسي في بلغاريا أن استلم زمام الحكم فيها بعد مقتل ستامبولوف ١٨٩٥ وعلى العكس في الصرب المدينة لسانتنا بتوسيع بلادها سنة ١٨٧٨ ولبقاء استقلالها مصوناً من عبث البلغار سنة ١٨٨٥ فإن سلالة اوبرنوفيتش قد علقت بقائنها ومستقبلها على طالع بلادنا. ومقتل ملك الصرب الذي كان داعياً إلى صعود أسرة قره جبرجو فيتش على عرش صربيا الملوثة بالدماء لم يكن فيه سقوط بيت ملوكي فقط بل تداعى معه النفوذ النمساوي في البلقان ١٩. ٣ وعنى العهد الأخير وعقبت اتفاقنا مع روسيا اضطربنا إلى التخلي مركزنا فأصبحت بلغراد للحال بؤرة اضطرابات مفرطة لا تطمح إلى الاستيلاء على مكدونيا فقط بل لتطال إلى مقاطعتي البوسنة وسلا فونيا فعادت الحال إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٨٧٦ وأصبحت الدولة العثمانية وسلطة إمبراطورية النمسا والجر في خطر من جديد. النسر ذو الرأسين هو الرمز الحقيقي لروسيا فإنها ليست ذات سياستين إحداها رسمية والأخرى سرية بل إن لهذه السياسة الأخيرة: الغرب والشرق. عندما تقف في وجه روسيا عقبات مهمة في الغرب تنقلب إلى آسيا ومتى صادفت هنا مشاكل نعود

فنبحت عما تعوضه في أوروبا. فروسيا لا تعرف لا توقفاً ولا راحة. لما أخذت روسيا بعد حرب القرم تجمع شملها كما قال السياسي غور تشا كوف استولت على إقليم الأمور منترعة إياه من يد الصين ثم افتتحت بلاد خانات آسيا الوسطى مثل بخارى وخو قندوخيوه وكان من أمر وفاق سنة ١٨٩٧ الذي وقعت عليه وحظر عليها العمل في البلقان علنا لما فيه مصلحة سياستها إن وجهت وجهتها نحو الصين الأخذة بالانحلال فاحتلت بلاد منشور وألقت نظرها إلى كوريا طامعة أن تكون دولة بحرية في المحيط الباسيفيكي إذ لم تستطع أن تكون كذلك في أوروبا ولكن هذه الأحلام جرحها إلى عراق مع اليابان وهذه كانت قد تجددت حياتها الداخلية فزادت قوتها وكان من حربها مع الصين وخروج اليابان ظافرة سنة ١٨٩٤ أن تنبه في هذه الدولة الغالبة الشعور فخرجت اليابان منصوره في البر وفي البحر في حرب سنة ١٩٠٤ - ٥ وفقدت روسيا بوراثور وكان من أمر كوريا أن احتلتها اليابان فاضطرت روسيا أ، تتخلى مؤقتاً عن أمانيتها في آسيا الصغرى وحالت الثورات التي نجمت بشدة سنة ١٩٠٥ - ٦ دون السياسة الأوروبية ولو كان للمحالفه الثلاثية خلق اعتداء وأطماع في فتح بلاد لتيسر لها في ذلك الحين أن تغتتم الفرصة لأضعاف مملكة القياصرة زمناً طويلاً. وكانت اليابان في هذه الحرب نصيرة إنكلترا التي كانت مربوطه معها على ما علم بمعاهدة لا يزال حكمها ساريا وبتحريض الإمبراطور غيليوم الثاني دخلت روسيا في الحرب لتقضي على الخطر الأصفر فإن ألمانيا كانت تحاذر أبداً من جارها في الشرق ومن اتحادها مع فرنسا فرافها اشتعال روسيا في الشرق ونظرت إليه بعين الرضا وهذا مما ينافي مصلحة إنكلترا. وكانت مشاكل هذه المصانع الحيوية منذ عهد نابليون تتقاذف القرن التاسع عشر بجملمته ويرجع

أفضل إلى فمبري العالم المجري الشهور في إنارة الرأي العام الإنكليزي في معنى النتائج
المضرة على إنكلترا التي تحدث من التقدم الروسي وقد أدركت إنكلترا منذ ذلك العهد
بأن اتساع مستعمراتها وتباين أفكارها امتداد تجارتها واخافضة على مصارف صناعتها
وطرق مواصلاتها تقتضيها مشاق تزيد اليوم عن الآخر. وصرح المريكز سلسبوري
البوزير الإنكليزي في إحدى خطبه بما يجب على بريطانيا العظمى من الاستسلام للنقضاء
بلسان الحزن أمام ما يعترضها من أصعاب التي تكاد لا تذلل حل هذه الإشكال. فمن ثم
رأت إنكلترا بعين الرضا اخالفة الثلاثية تقيد الأطماع الروسية عن الانبعاث في أوروبا
وكذلك تفعل اليابان في آسيا. وبديهي أن الأملاك البريطانية في آسيا هي أثمن في نظرها
من الدولة العثمانية والمضائق وهي ترجح أيضاً أن تشفي روسيا أطماعها التي لا ينتهي في
أوروبا بدلاً من أن تعبت بإمبراطورية الهند ومصارف الصين. عرف هذا فخطر لرجال
السياسة الإنكليزية أن يشغلو روسيا في أوروبا ليخلو لهم الجو ويمتعوا بنعمة السلام في
آسيا. ومن ألقى نظره على التاريخ يرى أن السياسة الإنكليزية ذات وجهين تشبه
السياسة الروسية تقريباً فإن اختلاف الأحزاب في بريطانيا في مسائل السياسة الخارجية
تحدث بينهم اختلافاً كبيراً كالانحراف الشاهد في بطرسبرج بين روسيا الرسمية وغير
الرسمية فحزب المحافظين من الإنكليز الذي تشيع بما دار من العراك القديم مع فرنسا
يبحث أحيانا أن يكون من حزب الحكومات الألمانية ومن قواعدهم ومن قواعدهم إجمالاً
أن يكونوا على صلات حسنة مع بلاط فينا ويحافظوا على الدولة العلية وفي بعض
الأحوال عندما كانت الأستانة تهدد والقوى الروسية تقترب من الهند كان الأحرار
يعضدون سياسة الاستعمار ولكن تقاليدهم السياسية تختلف اختلافاً محسوساً. وقد ورد

في كتاب مفاوضات هوراس والبول إن كاتربنا الثانية أوصت في سنة ١٧٩٢ على تمثال فوكس زعيم حزب الأحرار المعارض الإنكليزي في عهده لأنه قاوم نشوب الحرب بين الشعبين العظيمين روسيا والإنكليز فكانت القيصرة تحارب إذ ذلك الدولة العثمانية التي كان يدافع عنها بيت الإنكليزي وطلبت كاتربنا حصن أوتشا كوف والصقع الواقع بين هري بوج ودينستر أعدت الحكومة الإنكليزية عدتها لتبعث إلى بحر روسيا بأسطول من قبلها ولكن المعارضين صرخوا بأعلى أصواتهم أن هذه السهول لا توازي المبالغ التي تقتضيها الحرب وتكلم المعارضين بنسان الصناعة والتجارة الإنكليزية وما ينالها من ألفتور بحيث اضطر بيت أن يتخلى عن دعواه أما كاتربنا فطلت تفتح فتوحها بتؤدة. ومثل ذلك حدث في الحروب العثمانية الروسية ١٨٦٧ - ٧٨ وكانت وزارة ديزرائيلي إذ ذاك تميل إلى العثمانيين وتقرح عقد محالفة مع بلاط فينا وعلى العكس في وزارة غلادستون التي كانت بسبب المذابح البلغارية تحمل الحملات المنكرة على العثمانية وتطالب بإخلاء النمساويين للبوسنة ولما استلم أزمة السياسة في بلاده لم يلق للعثمانية بالاً وكان من عمله احتلال مصر وقد أبانت تقاليد حزب الأحرار كيف أن هذا السياسي العظيم قد اسغوته عقلية نوفيكون بنطفها على أيسر وجه بيد أن تقاليد حزب الأحرار لم تمكن إنكترا من تجاوز حدها والانضمام إلى الخالفة الشائبة ولولا أنم حدث تبدل كبير في أوروبا ما استطاعت أن تنوي وجهها عن حليفاتها القديمت وتضع يدها في يد عدوتها منذ الزمن الأطول: فرنسا وروسيا. وما دعت إلى هذا التبدل حوادث تاريخية بل كوائن النشوء والأريقاء وهو ارتقاء ألمانيا الخارق للمادة فإن ألمانيا بعد حرب فرنسا ظهرت في مظهر لا مثيل له في التاريخ إذا اعتبرت مملكة قوية الشكيمة في داخلتها ومعروفة بأنها

أول دولة حربية في القارة الأوروبية تنصرف إلى عمل سلمي ولا تسعى استعمال قوتها لتخضع إليها شعوباً أخرى ولم يكن بسمارك يعني بغير تنظيم داخلية ألمانيا وما كان يعقده من المخالفات لا غاية له إلا تمكن بلاده من أن تعمل في ظل السلام في تنظيم داخليتها وكان هذا العمل مضاعفاً وذلك لأنه يقتضي له من جهة أن يسكن ما أمكن الجدالات المذهبية والاجتماعية ومن جهة أخرى أن ينشط الأعمال الألمانية ويشمرها وهذه الأعمال نتيجة العلم العملي. فسكنت الجدالات المذهبية بعدما ثار ثائر الجهاد على الكثرة واستطاع الكاثوليك في ألمانيا أن يشاركوا في العموميات البرتستانت جنباً إلى جنب. اقتضت الحال للرضاء العملة أن توضع نقطة من الزيت الاجتماعي في الآلات الحكومية (١٨٨١) وبمعاونة حزب السوسياლისت الديمقراطي أحدثت على التدرج طريقة تامة لضمانة أحوال العملة وكان من نتائج الاقتصاد الألماني والعمل الألماني جمع رؤوس الأموال الكبرى. فالعلم الألماني مطبقاً على الصناعة رفع البلاد فوق درجة منافسيها من حيث إنشاء الأسلحة وجعل العالم أجمع عالة على معاملها الكيماوية وعلى تلك النسبة أرتقت التجارة الألمانية فشرركات الملاحة في برين وهامبورك كانت تنافس الشرركات الإنكليزية الفرنسية في الصين وأميركا الجنوبية بل وفي الهند وهذه الشرركات كانت تطمح إلى امتلاك المستعمرات فامتلكت أراضي أهملت الدول الأوروبية احتلالها مثل مستعمرات افريقية الشرقية والغربية غينا الجديدة (١٨٨٤) وقد استلمت الحكومة الألمانية بعد هذه الأملاك. من أقوال النورد بيكو نسفيلد المشهورة وهو ما نقله عن المؤرخ الروماني إن عظمة إنكلترا تقوم في الجميع بين النقيضين: إمبراطورية وحرية أما نحن ففرى أن الصفات الرئيسية في ألمانيا الحديثة قائمة أيضاً في أحكام العلا بين نقيضين: بين السلطة

ونظام الجيش والإدارة بين الحرية في الفكر والحرية في العلم. كان من بسمارك أن دخل في اعتدال زائد بل بشيء من الخوف في ميدان السياسة الاستعمارية وإنشاء أسطول حربي لأنه كان في عدة مسائل يذهب مذهب تقاليد بروسيا القديمة فكان الألمان يحاذرون من حقد لفرنسيس وعداوة الروس ولا يريدون أن ينهوا حسد إنكلترا بيد أن الجبل الذي نشأ منذ الحرب الكبرى أصبحت له أطماع أعلى من ذلك لأنه أيقن أن فرنسا قد سحقت وروسيا ما برحت غامرة من حيث أن إنكلترا هي الخصم الممكن للأمة الألمانية التي دعيت لتكون دولة العالم بغناها وقوتها المعنوية وكان رأي الإمبراطور غيلوم كذلك من سنة ١٨٨٨ وعلى عهده وبمساعيه بدأت ألمانية تصبح دولة بحرية عظمى وارتقاء البحرية الحربية هو عمله بالذات عقدت عقدة الاتفاق الأولى مع إنكلترا فبعد مفاوضات مع سلسبوري وقع الاتفاق في حزيران ١٨٩١. ان تكون لإنكلترا السلطة على زنجبار وتترك ذلك لألمانيا جزيرة هليكولاند وهذه الصورة انتقل إلى المملكة الألمانية هذا الحصن الطبيعي في بحر الشمال. وكانت إنكلترا استولت عليها خلال حروب نابليون وخلص الأسطول الألماني من مراقبة خطيرة في جواره مباشرة وقد أثبتت الحرب الحالية مكانة تخلي إنكلترا عن هذه الجزيرة لألمانية وتبين لماذا لا يغفر الإنكليز هذا العمل لرجال سياستهم ولم تنشأ العداوة الحقيقية بين الألمان والإنكليز إلا في حرب البوير فان الإمبراطور غيلوم أرسل إلى الرئيس كروجر برقية تهنئة بعد أن غلب الإنكليز في فرضة جامسون فأحدث ذلك سخطا شديدا في إنكلترا لان الإمبراطور هو حفيد الملكة فيكتوريا وكان ولاية الأمر في ألمانيا والرأي العام منحازين خلال حرب البوير إلى هذا الشعب الصغير الذي كان مستتبلا في سبيل الدفاع عن استقلاله انعزلت إنكلترا عن السياسة الأوروبية منذ سنة

١٨٧٨ فلم تعد في جبهة مخالفة من مخالفة من مخالفتها وكان سلسبوري يدعو هذه الحالة العزلة الرائقة بيد أن حرب البوير وعواطف الكراهة التي نالتها السياسة الإنكليزية في كل صقع وناد عدا النمسا أبانت لها أن هذه العزلة ليس فيها ما يشوق ويروق وكان. اسطول ألمانيا الحربي يزيد على الدوام حتى فاق أسطول فرنسا وكان بعد أسطول هذه بعد الأسطول الإنكليزي بعدده وعدده والتجارة الألمانية تفتح لها مصارف جديدة في العالم وبيننا كان يقال سنة ١٨٧٦ أن المصنوعات الألمانية غالية ورديئة ولكنها بالنسبة للمصنوعات الإنكليزية رخيصة وجيدة أصبحت تنافس الصناعات الإنكليزية حتى في إنكلترا منافسة شديدة ولم تر ألمانيا أن تكتم أمانيتها وصرح رئيس النظار البرنس بولوف في مجلس النواب أن ألمانيا تطالب أيضاً بأن تحيا على هذه الأرض ولقد كتبنا سنة ١٩٠٤ ما يأتي: تجري ألمانيا على سياسة لتحرز الأولوية بين الدول فإلى أين تستطيع أن تسير بدون أن تحدث لها مشاكل مع المسيطرين على العالم وهم اليوم خصومها هذا سر من أسرار المستقبل فاقضى لألمانيا أن تنزع من فكر إنكلترا فقط أنها الحاكمة المتحكمة في البحار وفي الاستعمار والعالم واستعمال عقد اتفاق بين المملكتين وكانت روسيا. مرتبكة أنواع الارتباك أن تباشر عملاً في آسيا. وفرنسا تحالف الشيطان على شرطان تكون ائتلافاً ضد ألمانيا بل تحالف إنكلترا التي أورثتها سنة ١٨٩٨ عار الطرد من فاشودة. هكذا كانت الحال عند ما تولى ادوارد السابع زمام الملك في إنكلترا فرأى بعين البصيرة في الحال ما يجب مداولته وأيقن أن من الواجب تحويل أنظار روسيا عن الشرق الأقصى حيث يرجى أن يكون خطراً على السياسة الإنكليزية وإن يجذب بضع روسيا إلى الغرب يجعلها مناصبة لألمانيا وحليفها ولا شك أن مصلحة فرنسا كانت كذلك. ولهذا الغاية

ذهب ملك إنكلترا إلى ريفال في حزيران ١٩٠٨ فلم تلبث إيران وكانت منذ زمن طويل موضع الشقاق بين روسيا وإنكلترا أن تقاسمتها فجعلت منطقتين روسية وإنكليزية وأصبحت الأولية بذلك لروسيا في بلاد فارس. واهم من ذلك التقرب الذي وقع بين اليابان ومملكة القيصر من حيث النتائج. وعلى ذلك حدث تبدل تام في السياسة الإنكليزية عقيب استلام الأحرار أزمة الأحكام في إنكلترا وأصبحت المحالفة الثنائية وفقاً بدون أن تتقيد إنكلترا بمحالفة عسكرية مثل شريكها. حدث في خلال سنة ١٩٠٨ الانقلاب العثماني واستولى فتیان العثمانية على زمام الحكم في البلاد وضمت عقيب ذلك البوسنة والهرسك إلى النمسا والمجر وكانت روسيا أظهرت ارتياحها إلى هذا العمل بادي بدء ثم دفعته سياسة السير ادوارد غراي فأنشئت تدافع عن حقوق الدولة العلية ثم عن مزاعم الصرب فلم تنشب الحرب لأن ألمانيا عقدت العزم على الأخذ بيد النمسا وفرنسا منهكة فتنها الداخلية يتعذر عليها أتعاون معونة فعلية بحيث أصبحت روسيا وحيدة فولت منهزمة. ومع هذا تخلت النمسا لواء يكي بازار على مكانته الحربية لأطماع الصرب والجبل الأسود وهذه كانت جعلت مملكة وأخذ شبح الحرب العامة منذ ذلك العهد يبدو سنة عن سنة وحضت هولندا أوائل سنة ١٩١١ مرفأً فليسنج ففهم من ذلك أن النية عقدت لأقفال مجرى نهر السكوت الذي يجري إلى أنفرس ولم يصعب علينا أن نستنتج من ذلك أنه عقد تحلف فرنساوي إنكليزي من مضمونه أن تحتل إنكلترا احتلالاً عسكرياً هذه القلعة المهمة ومرفأها حين نشوب حرب بين فرنسا وألمانيا. فأنقلب الوداق الودي إلى محالفة عسكرية. وفي صيف تلك السنة دهش العلم أجمع لإرسال ألمانيا إحدى بوارجها العسكرية إلى أغادير على الشاطئ الجنوبي الغربي من مراکش وذلك

للدفاع عن المصالح الألمانية من احتلال فرنسا بإشهار الحرب بل هددت إنكلترا ومع هذا وقع اتفاق هذه المرة أيضاً فأخذت ألمانيا جزءاً من الكونغو الفرنسية تعويضاً عن مطالبتها. بيد أن المهمة انصرفت إلى اتخاذ الأسباب لفصل ألمانيا عن حليفها حتى إذا تخلى عنها الكافة يتعذر عليها أن تقاوم ضعفت أعدائها فأخفقت هذه الأعمال على المهارة المبذولة لدى حكومة النمسا واخر ومعلوم ما أعقب ذلك من ضم طرابلس وبرقة إلى إيطاليا ثم حرب البلقان التي أنتجت فقد الدولة العثمانية لولاياتها في أوروبا ثم ضعفت بلغاريا وتوسع صربيا كل ذلك جعل الدعوى إلى تأسيس دولة صربيا الكبرى مهياة الأسباب وجراً قاتل ولي عهد النمسا على ارتكاب جنابته في سراجية ويوم ٢٨ حزيران ١٩١٤ ومن جهة أخرى كان الاعتداء يعتمدون على المنازعات الداخلية في النمسا واخر. ويظهر لهم أن اختلاف الأحزاب السياسية في اخر والقومية في النمسا تسهل طريق تجزئة هذه الإمبراطورية المشتوية ولكن دلت النتيجة، هذا الرأي مغلط فقد يتنازع إخوان فإذا جاءهما ثالث غريب عنهما يتدخل في شؤونهما ينقلبان في الحال يداً واحدة عليه ولو لم يكن أعداؤنا من هذا الرأي لكانوا أحجموا عن مدهمتنا في عقر دارنا. تبين مما تقدم أن سلام العالم كان ضعيف الأركان منذ سنة ١٩٠٨ لتضارب المصالح الكثيرة والأهواء المتنوعة بحيث يتعذر وصف علاج بقطع آفة المرض الذي ابتليت به أوروبا. وعبثاً جرى القول في الصلح وفي وضع طريقة السلاح النسي و كان جثام الحرب العامة يضغط على الأرواح وبهذا المؤثر وافقت المجالس النيابية على تجنيد الملاين من الجند وصرف المليارات من النفقات وهي إعداد ما كان الإنسان لطولها ليصدقها إلى ذاك العهد ونرجو أن تكون كذلك في المستقبل بعد فلماذا فادت الممالك مفاداة عظمى

بالرجال والمال لو لم تكن في صدد حريق عالمي هائل؟ ذلك أن فرنسا تريد أن تستعيد ولايتين كانت فقدتهما وان تعود إلى المركز الذي كان لها قديماً وان روسيا تريد أن تكون الحاكمة على المضائق وتخضع لصولجان القياصرة الشعوب السلافية الذين يدينون بالمذهب الأرثوذكسي وان يابان تريد التوسع في أملاكها وتزيد ثروتها لإنشاء أسطول حربي أما نحن النمسا بين واخرمين والألمان والعثمانيين فقد دفعنا إلى الحرب لندافع عن كيانتنا فاضطررنا لنفادي بأمور ثم إلى إعلان الحرب. وربما قيل إن المسلمين بأجمعهم يقفون في مصاف الدولة العليا لتقاوم عدواً القديمة روسيا وإنكلترا وفرنسا وهاتان الأخيرتان أصبحتا عدوتيهما وكانتا صديقيهما أما إنكلترا فان الداعي لها إلى إعلان الحرب هو الخوف من تخطي ألمانيا لها في مضمار الارتقاء فهي لا تريد أن ترتفع بل أن تخفض خصيئتها إن هذه الحرب هي حرب شعوب لا حرب أمراء ومع هذا فان مقتل ولي عهد النمسا وقرينته كان شرارة اتقدت بها النار بمواد غير ملتبهة كانت منبعثة من العالم اجمع. لا جرم إن نار ودنا أودرانا هي منذ عهد الباطنيين (القرن الثاني عشر) الشيعة السياسية التي كثيراً ما كانت تعتمد إلى القتل لبلوغ غايتها وكان الباطنية مسلمين متعصبين يسقيهم زعماءهم حشيشاً ليعتثوا بهم يسفكون دماء وقد حاربهم غير ما مر سلاطين السنجوقيين وفرسان الهيكل فأبادهم مؤخراً أبنا دينهم ممالك مصر ومن العبد أن يبحث في أوروبا في القرن العشرين عن عواطف للتضامن وخشي من هول الجريمة وما من رابطة تجمع خصومنا ومن العجب أن روسيا التي أبادت أمماً كثيرة تقف الآن موقف المخلص للشعوب الصغيرة بقتالها التسليح العام في جنب إنكلترا وفرنسا ولا وجه للبحث هنا عن الاتحاد السلافي والاتحاد الروماني فإن الاتحاد السلافي الأدبي قد فسد بالروسية الوحشية

وبانتحال المذهب الأرثوذكسي بالقوة وما من أحد يفكر بتاتاً أن يحقق أحلام الثورة
الإفرنسية من حيث السياسة والاجتماع أو أمني المخالفة المقدسة الخيالية ولا يعمل هناك
غير القوة الوحشية ليس إلا ونلاحظ فقط أن التطرف الغربي قد ملأ الحكم الروسي
المطلق لإبادة أمم أوروبا المركزية البعيدة عن الاستبداد والفوضى وما شعارها إلا الترقى
والإصلاح الاجتماعي الرصين لها.

الشيخ إبراهيم الحوراني

تنمة ما في الجزء السابع

٤ نشره

أرهف المترجم به يراعه منذ الصبا فأجاد في الموضوعات التي دمجها به ولم يبق بحثاً لم
يتناوله بأسلته فتفنن في مقالاته تفنناً لا يجيد فيه إلا من كان مثله كثير الاطلاع متضللاً
من العلوم والآداب متقناً للمنقول والمعقول فتراه يذهب بعقل المطالع لكتاباته الوضيحة
البليغة كل مذهب وينحو به كل منحى فيمر على المدن والداكر ويريه الشوارع
والمنعطفات ويسدد خطواته في مناهج الحقيقة ويطير به في عالم الخيال ولكنه لا يتيه
بالقارئ ولا يضل سبيلاً بل يملأ مخادع حافظته صور تعابير بليغة ويمآن فكره موضوعات
مفيدة ويرشده إلى الصراط المستقيم ويطبع في مخيلته أصح الآراء وأسد الأفكار العنسية
الأدبية فيعود مطالع أبحاثه مستفيداً كل الاستفادة محرزاً ما يريد من الأبحاث والألفاظ
والمعاني مع تفنن في التعبير وخلوص من التعقيد وبساطة في التركيب ومن قرأ ما جادت
به قريحته من المقالات الرنانة في المجالات والجرائد والكتب شهد بصحة قولنا ولم يحمله
على الإطراء والتزلف فإننا وإن كنا من أصدقائه المخلصين فلسنا من مريديه الكاذبين